دور العقل في الخطاب الديني

د. بو عبد الله غلام الله

وزير الشؤون الدينية والأوقاف

الخِطاب الديني، من حيث كونه خطاباً يستند في أسسه ومنطلقاته إلى الوحي، يعتبر مقابلاً للخطاب الإنساني الوضعي الذي يستند إلى العقل المحكوم بقدراته والمحدود بمصادره في النظر إلى مسائل الوجود والحياة والإنسان ومصيره كذلك.

لقد بعث الله سبحانه وتعالى ختاماً لرسله وأنبيائه محمداً صلى الله عليه وسلم نبياً أمياً، في مجتمع بسيط، وسط حضارتي الفرس والروم ليؤكد للبشرية أنّ عقل الإنسان مهما ترتقي مداركه لا يمكن له أن يهتدي وحده إلى هذه الأسرار والحقائق التي يستقبل بها وحي السماء وحده.

فالخطاب الديني هو المتميز بانطلاقه من الحقيقة الكاملة، من الجوهر الثابت ليتعامل ويتفاعل بعد ذلك مع الفرع المتغير في الزمان والمكان، أي مع

تطور حياة الإنسان والمجتمع؛ من أجل ذلك تميز القرآن الكريم في التعبير عن مصدر الحقيقة في الإنسان، فلم ينسبه إلى العقل وحده، إذ لم ترد هذه اللفظة في صيغة المصدر أبداً وإنّما وردت دائماً في صيغة الفعل، إشارة إلى أنّ مصدر الحقيقة في الإنسان ليس العقل وحده، وإنّما العقل والقلب معاً. ﴿ **إنّ السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا** ﴾[1].

والخطاب الديني بعد ذلك هو الدعوة إلى الله وإلى الإيمان بالرسل والاقتداء بهم، واقتفاء نهجهم في إقامة الدين الحق، واتباع أوامر الخالق واجتناب نواهيه، وتربية الخلق وتنظيم حياة المجتمعات، وتوطيد التعامل الإيجابي مع مقتضيات الأحــوال المتغيرة التي تطرأ على الحياة الاجتماعية في مستوياتها المختلفة ؛ والهدف الذي يتوخاه المؤمن من اقتفاء أثر الرّسل والسّير على هديهم هو الارتقاء بالوجود الإنساني وتحقيق الكمال الخلقي في المجتمع الذي هو غاية الدين، وجوهر الإيمان، وهو المقصد الأسمى من التربية التي هي وظيفة الرسل، ومحتوى الرسالات السماوية التي جاءت لهداية البشر عن طريق إذكاء وعيهم، ولتحريرهم من ضعفهم وجهلهم، وأوهامهم وسيطرة غرائزهم، وتخليصهم من النوازع التي تميل بهم عن الحق والخير والعدل، وتدفعهم إلى ما يضاد إنسانيتهم، ويحطّ من كرامتهم.

[1]- سورة الإسراء، الآية 36.

هذا هو الخطاب الديني الذي ينطلق ممّا شرعه الله لعباده، وارتضاه لهم عن طريق الرسل ليكون لهم عوناً على فهم أنفسهم، ونوراً لأبصارهم، وهداية لبصائرهم، وتوجيهاً لعقولهم وسمُوّاً لأخلاقهم، ورفعة لحياتهم مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾[2].

فالخطاب الديني هو الذي يوجّه العقل لإدراك المقاصد في الدين، وفي الأحكام التي يدعو إليها من حيث إنّه يضيئ له الطريق الحق ويهديه سواء السبيل، ويوجهه إلى التفكير الصحيح والتدبر الواعي الذي يقود إلى استنباط الأحكام، ويشعره بالحاجة إلى المعرفة الحقة، وفهم الحقائق التي تحكم هذا الكون، ويعطيه مفاتيح البرهنة والاستدلال على وجود القوة المدبرة لهذا الكون ويمكّنه من فهم المنظومة الأخلاقية التي تشكل دستور الحياة الجماعية والاجتماعية باعتبارها المجال الذي تنتظم فيه العلاقات الإنسانية وتحدد فيه مسؤوليات الأفراد والجماعات وترسم ضمنه الحقوق والواجبات التي تضمن التوافق والتكافل بين الناس وتقود إلى بناء المجتمع المتماسك والمتكافل..تلك المنظومة التي يقرّها الشرع، ويهتدي إليها العقل السليم ليجعل منها المنطلق لبعث حياة منسجمة وكريمة.

---

[2]- سورة المائدة، الآية 18.

إنّ حقوق الإنسان والحريات العامة وعلاقة الحاكم بالمحكوم، ومكانة المرأة في المجتمع ودور الرجل ونظام العائلة، وقيمة العمل والإنتاج، والحرية والمسؤولية والكرامة الإنسانية، والحوار المتكافئ، ودور العلم والعلماء وتربية النشء على حسن الخلق..هذه كلّها عناصر تشكل جانباً من المنظومة الأخلاقية، التي تستمد من العقيدة الإسلامية ومقاصد الشريعة.

دور العقل .

إنّ مجال العقل واختصاصه هو البحث في أسرار الكون والطبيعة، أمّا مجال الدين فهو الأخلاق ومعنى وجود الإنسان على الأرض ورسالته فيها، وكل ذلك شأن الخالق وحده سبحانه يبينها لخلقه عن طريق الوحي.

إنّ الله سبحـــانه لم يهيئ للإنسان يوم خلقه رؤية مباشرة للقانون الذي يسيّر به السماوات والأرض، فيتيح له بذلك سرعة مذهلة في إنجاز الأشياء دون تعـــب أو عناء، ويقفز إلى الحضارة الخارجية دون تدرج وتطور، ولو كان الأمر كذلك ما شـــهد التاريخ البشري هذه الجهود الإنسانية العظيمة والسعي الدؤوب نحو الكشف والابتكار، بدافع من ذلك التحدي الأبدي بين الإنسان والطبيعة. ولنا خير مثـــال على ذلك المسلمون في تاريخهم الطويل، فهم يوم احترموا اختصاص العقل وسخروه في حدود اكتشاف أسرار عوالم المادة للتحكم في قوانينـــها كانوا رواداً في مجال الرقي الاجتماعي والتقدم العمراني،

ولّما قصروا جهد العقل على الغيبيات وكبلوه دون مجاله المهيأ له، تاهوا وسقطـــوا في ميزان الريادة الحضارية.

إنّ العقل في الشريعة الإسلامية هو محور الخطاب الديني والركيزة التي يقوم عليها، والهدف الذي يتوجه إليه، إذ العقل مناط التكليف وأساس المسؤولية، به يدرك الإنسان الأمور ويميز بين نافعها وضارها، وصوابها وخطئها، وبه يعي الإنسان ذاته والحكمة من وجوده ويستوعب أحداث الحياة المحيطة به..وقضايا الكون، ويفقه مجموع المعتقدات والأحكام التي تتعلق بالحياة الدنيا وما بعدها. ولا يمكن للإنسان الاستفادة من هذه القدرة الخلاقة المبدعة إلاّ بإعمال النظر في جميع المحسوسات والمعقولات وفق ما أمرنا الله به في كتابه.

ونظراً لهذه المترلة التي يحتلها العقل في الدين الإسلامي والدور الفاعل الذي يُناط به في تحديد ضوابط التجديد والتأويل في مجال الدعوة والإعلام، وطريقة الإسلام والتنويه به في المجتمع غير المسلم، نظراً لهذا يوجّه القرآن الكريم اهتمامنا إلى توظيف القدرة العقلية التي وهبها الله للإنسان وميّزه بها والتي لا يذكرها القرآن إلاّ في مقام التكريم والتنبيه إلى وجوب العمل بها والرجوع إليها.
« **إنّما يتذكر أولوا الألباب** »[3].

قال الله تعالى: ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجنّ والإنس لهم قلوب**

[3]- سورة الزمر ، الآية 9

لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ﴾[4]، وقد ذكر الله تعالى السمع والبصر مع العقل لأنّهما المنفذان اللذان يقدمان له المدركات التي ينطلق منها في ممارسة مهمّة الاستدلال.

وبهذا يتأكد أنّ للعقل دوراً أساسياً في فهم الخطاب الديني (بإعطائه الدلالة الحقيقية التي بها يعي الإنسان ماله وما عليه) وتطويره والبحث عن أساليب التبليغ التي تنسجم منهجاً ودلالة ولغة مع الأوضاع المتطورة، والظروف المستجدة في حياة المجتمعات الإسلامية، تلك الظروف التي أصبحت تميّز عصرنا وتطرح أمامنا إشكالات تستوجب تحديث نظرتنا إلى علاقة الدين بالدنيا، وتجديد طرائق التبليغ والبحث عن الأدلة المقنعة التي تنسجم مع المقاصد السامية للشريعة بحيث لا يجد الإنسان المؤمن أيّ تعارض بين العلم والدين، ولا بين الرغبة في التطور الحضاري وبين الارتباط بالحقيقة الدينية ولا بين فهم المسائل الفقهية والأحكام الأصولية وبين الضغوط التي تفرضها وقائع الحياةلأنّ الفكر الإسلامي الصحيح يقوم على التكامل والتوافق بين الجوانب العقلية التي وظيفتها التدبّر والتأمل والاستدلال، وبين الجوانب الروحية الوجدانية التي وظيفتها الإيـــمان والامتثال والالتزام، إذ البحث العقلي واجب الإنسان المسلم وجوب الإيمان بمقاصد الشريعة.

[4]- سورة الأعراف، الآية 179

وقد أوضح ابن رشد أنّ ما يؤدي إليه البحث العقلي الصحيح لا يخالف ما يقرره الشرع، وإذا كانت هناك جوانب دينية غيبية لا يهتدي إليها العقل إلاّ عن طريق الرسل، والمتواتر من النصوص النقلية، فإنّ ذلك يرجع إلى الإيمان، أي إلى أساس السلوك الديني. لأنّ الدين يخاطب العقل والقلب معاً، والعقل هو الذي أشعرنا بحاجتنا إلى التديّن وإلى الإيمان، فالإنسان الذي يعطل تفكيره إنسان محتقر لعقله، مستخف بقدراته لأنّه حرم نفسه من التأمل في قوانين الوجود ودقائق الكون (أي حرم نفسه من المعرفة) لذلك وصف القرآن الكريم الذين عطلوا عقولهم بقوله تعالى: ﴿ **أولئك كالأنعام بل هم أضل** ﴾[5]، فالمؤمن الحق يُطلب منه شرعاً أن يُحكّم عقله فيما يأخذ ويترك لأنّ تعطيل القوة العقلية ينتج عنه الجهل والحرمان من نور العلم الذي هو أساس الإيمان الحق والاعتقاد الصحيح والمعرفة اليقينية. وقد نهانا الله عن اتباع ما ليس لنا به علم سواء في القول أو الفعل أو الاعتقاد، فلا يجوز أن نفعل أو نقول أو نعتقد إلاّ ما نعلم أنّه حق.

وهذا ما أكدته الآية القرآنية ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم إنّ السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا** ﴾[6]، ويذكر الزمخشري : إنّ المراد من هذه الآية هو النهي عن أن يقول الرجل ما لا يعلم وأن يعمل بما لا يعلم(الكشاف).

---

[5]- سورة الأعراف، الآية 179.

[6]-سورة الإسراء، الآية 36.

فالحديث عن دور العقل في الخطاب الديني وتأويله التأويل الصحيح وتبليغه للناس يُحتــّم علينا أن ننقد الآراء التي تستخف بالعقل أو تسخر منه أو تدعو إلى الاكتفاء بالنص وتلك التي تجعل العقل والنص في تعارض أحياناً، إنّ هؤلاء الذين يتمسكون بحرفية النص ويعتمدون في كلّ أحكامهم على النقل ويهملون شأن العقل حتى ولو كان ظاهر النص يقتضي التأويـــل. إنّما يعطلون هذا النور الذي كرم الله به الإنسان، وممّا لا شك فيه أنّ هذا التعطيل يؤدي مع الزمن إمّا إلى إغفال الدين لممارسة الحياة، أو التقهقر في شؤون الحياة والتحجر في قوالب مغلقة تنافي روح الإسلام ومقاصده.

إنّ كتاب الله مليئ بالأحكام والاستدلالات العقلية سواء فيما يتعلق بالأمور الغيبية مثل قوله تعالى :﴿ **لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا** ﴾[7]، وقوله : ﴿ **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض**﴾[8]،أو فـــيما يتعلق بأمور الحياة الاجتماعية والاقتصادية مثل قوله تعالى :﴿ **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** ﴾[9]،وقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم** ﴾[10]،وآيات الأحكام التي تمثل نسبة معتبرة من القرآن جـــاءت كلها في تنظيم المجتمع،

---

[7]– سورة الأنبياء، الآية 22.

[8]– سورة المؤمنون، الآية 91

[9]– سورة الأنفال، الآية 46

[10]– سورة البقرة، الآية 172.

مهتمة بحياة الفرد مفرداً وعضواً في جماعات الأسرة والإنتاج والتنظيم الاجتماعي والسياسي...

ويغفل الحرفيون المتمسكون بظاهر النصوص أنّنا في عصر سيادة العلم. وهو نتاج العقل. وإنّ العولمة الزاحفة إنّما تنتشر وتطغى باسم العلم، وإذا كنّا لا نشارك العالم بعقولنا التي نعطلها فمما لا جدال فيه أنّ مكانة المسلمين في العالم سوف تتدهور إلى أدنى ممّا هي عليه اليوم، إذ لم يعد بينهم وبين غيرهم ما هو مشترك إن هم أصروا على توقيف العمل بعقولهم.

إنّ هؤلاء ينسون أنّنا في عصر تتصارع فيه قوى فكرية مختلفة واتجاهات حضارية متباينة وتحديات علمية كبيرة، ومجتمعنا الإسلامي عرضة لهذه القوى المتصارعة ويعيش في كلّ لحظة هذه التحديات التي تستهدف ابتلاعه أو اقتلاعه من جذوره، فإذا لم نستثمر عقولنا ونوظف أفكارنا فيما هو مسخّـــر لنا ومتاح أمام قدراتنا ونسعى إلى الأخذ بأسباب التقدم فلن يكون لنا وجود حقيقي في المستقبل، ولن تكون لنا المكانة التي نتطلّع إليها، بل قد تبلعنا العولمة التي تكشر عن أنيابها في أيامنا هذه وتسعى لمحونا وإزاحتنا من الوجود.

إنّ ما يطلبه الخطاب الديني هو أن يعيش الإنسان الحقيقة الدينية عقيدة وفكراً وسلوكاً وعملاً، ويسعى إلى تجسيمها في تعاملاته مع الناس ومع وقائع الحياة التي يحياها حتى يبرهن على أنّه جدير بوظيفة الاستخلاف التي كرّمه الله بها.

والأمر هنا يتعلّق بمقاصد الشريعة التي ينبغي أن يؤسس عليها تفكيرنا، فالموازنة بين الأحكام هي التي تحدّد ما ينبغي أن يُفهم من بعض المسائل التي لا يطرح فيها التأويل والاستنتاج والاجتهاد أيّ إشكال عقائدي والتي يجب أن نعمل على تحيينها لتتلاءم مع التطورات ومع الظروف المتغيرة التي نعيشها.

إنّ إعمال الفكر في المسائل الدينية المطروحة على مجتمعنا اليوم يحتم على العلماء القادرين على الاجتهاد أن يطوروا الأحكام وأن يجعلوا من الأصول الدينية أصولاً لحياتنا الفكرية والمادية وسبيلاً من السبل التي تكفل للمجتمع حياة كريمة وازدهاراً قائماً على الانسجام بين العقيدة والعمل، بين الجانب الروحي وبين الجانب المادي للحياة.

إنّ إرادة التغيير نحو الأحسن جزء من الدين، ولكن هذا التغير له ضوابط وسنن يجب اتباعها، لأنّ هناك أسساً ثابتة لا يمكن للعقل الإنساني أن يَجْرُؤ على تغييرها أو تأويلها وإعطائها تفسيراً مخالفاً للنص المتفق عليه. ولكن هناك أمور متغيرة تتغير مع الزمان ومع الظروف ووفق تطورات الاكتشافات العلمية. هذه الأمور هي التي يتوجه إليها الاجتهاد وتنصب عليها إرادة التغيير، فالقضايا التي تطرح في المجتمع الزراعي القديم مثلاً غير القضايا التي تفرض نفسها في المجتمع الحديث الذي تحكمه ظروف متميزة، وأوضاع خاصة، فالمجتمع الحديث يتميّز –في جوانب عديدة– عن المجتمعات التي عاشت في العهود السابقة، فالقضايا

التي يطرحها تنظيم البنوك والمؤسسات الاقتصادية وظروف التجارة ووسائل المواصلات وعلوم الاتصال تعدّ من المميزات التي لم تكن في المجتمعات الزراعية.

لذا يجب أن تُراعى هذه الأوضاع في التعامل مع المسائل الدينية بحيث تسَن قوانين وأحكام ونظم مناسبة من غير أن يمس ذلك جوهر العقيدة أو يحرف أصلاً من أصول الشريعة، وحتى لا يترك المجتمع يتخبط في قضايا مستجدة وقد لا يجد لها المواطن العادي حلاً موافقاً للآراء الغابرة، يجب أن ندفع الاجتهاد الجماعي إلى الأمام، بحثاً عن الحلول المناسبة لعصره لأنّ هذا النوع من البحث الاجتهادي دعوة مشروعة يفرضها الواقع المتغير وتستوجبها تطورات وسائل الاتصال وبفضل هذا الاجتهاد يتدخل العقل في استخراج الأحكام المتعلقة بالمسائل الحياتية التي ترتبط بأمور التعايش والمبادلات والعلاقات وأنماط المعاملات.

1- مساوئ التبليغ :

وممّا يعوق الخطاب الديني عن تحقيق أهدافه والنفوذ إلى أعماق الإنسان الـــذي هو الهدف من هذا الخطاب ما يرجع إلى مساوئ التبليغ من جهة وجهل الدعاة بروح الشريعة من جهة أخرى، فمن مساوئ التبليغ :

أ. حرص الدعاة على فرض الأفكار والقناعات الخاصة من غير أن يعتمدوا في ذلك على الإقناع والحاجة المنطقية والدليل اليقيني الذي يرتفع عن الظنون والأوهام.

إنّ هذا النوع من التبليغ يرفضه القرآن ويتناقض مع الإرادة الحرة، فالقرآن يجعل الإكراه في الدين أمراً مرفوضاً لقوله تعالى : ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغي** ﴾[11]، وقوله تعالى :﴿ **أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**﴾[12]، وقوله :﴿ **فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلاّ البلاغ**﴾ [13].

ب. طريقة التبليغ .

كثيراً ما يكون الأسلوب اللغوي المستخدم عائقاً من عوائق فهم الخطاب الديني، وكذلك المنهج المتبع في عرض الحقائق الدينية والبرهنة عليها.

ج. تعطيل الاجتهاد .

فالداعية الذي يسعى لرفض التأويل وإعمال الفكر في تحليل الخطاب الـــديني والتقيد بحرفية النص هو إنسان يســـعى لتعطيل الاجتهاد، وإلغاء العقل وتجميد الدين وعزله عن الحياة الاجتماعية.

د. التضخم اللفظي والاندفاع العاطفي الذي لا يضبطه فكر ناضج ولا تخطيط دقيق للواقع المتميز بمناخه وتضاريسه وملابساته، تخطيط يراعي تمايز المخاطبين وتفاوت درجات وعيهم الفكري ونضجهم وحسِّهم الاجتماعي والحضاري.

---

[11]– سورة البقرة، الآية 256

[12]– سورة يونس، الآية 99.

[13]– سورة الشورى الآية 48

2 – جهل الدعاة .

فالدعاة الذين يتطوعون في الدعوة إلى الله قد يجهل بعضهم أساس الدعوة ومضمونها والغاية التي يستهدفها الخطاب الديني، فتكون دعوته مضللة.

الجهل بالطرق والأساليب : قد يجهل بعضهم طريقة عرض الحقيقة الدينية وشرح الأحكام فيستخدم أسلوباً منفراً، أو خالياً من أيّ منهج تربوي ممّا يكون سبباً في خلق الصراع بدل التفاهم والانسجام.

إنّ الجهل بنفسية السامع أو المتلقي هو وجه من أوجه التبليغ السيئ الذي لا يصل إلى هدفه.

وهناك فرق بين المجتمع المسلم والمجتمع غير المسلم، فالأسلوب التبليغي الذي يُستخدم في هذا المجتمع غير الأسلوب الذي يستخدم في ذلك المجتمع إذ الأسلوب الذي ينتهج في المجتمعات الإسلامية هو الأسلوب الذي يقدم على تحليل النصوص واستخلاص الأحكام، وتأويل ما يقبل التأويل أو ما يجوز فيه التأويل ويتوافق مع الأصول والمقاصد، وتلعب اللغة والتاريخ وغيرهما من العلوم الإنسانية دوراً أساسياً في اكتشاف المعاني واستنباط الحقائق وفهم الأحكام، أمّا الأسلوب المنتهج في المجتمعات غير المسلمة فينبغي أن يقوم على الشرح الوافي لروح الإسلام واستعراض مزاياه ومقاصده مع التركيز على الحوار وتحري

أساليب الإقناع المنطقي في إطار ما يسمّى بحوار الحضارات والديانات، ولا يمكن أن يكون كل ذلك إلاّ بالاعتماد على التفكير العقلي الصحيح.

فالخطاب الديني الذي يتوجه إلى غير المسلم وإلى من ينكر الديانات أصلاً، يحاول تبصيره بحقيقة الإسلام كديانة سماوية ورسالة حضارية إنسانية، يعمد هذا الخطاب إلى حشد الأدلة التاريخية التي تؤكد أنّ محمداً صلى الله عليه وسلم كان أميّاً، ثم يستعرض بعد ذلك ما ينطوي عليه القرآن الكريم من إشارات إلى حقائق علمية باهرة لم تكتشف إلاّ بعد قرون، كلّ ذلك لتأكيد إعجازه ومصدره الإلهي، هذا الخطاب يفتقر إلى منطق العصر الذي يراعي ذهنية المخاطب، لأنّه يفترض في هذا المخاطب أنّه يؤمن ويسلم بالنبوة وبالوحي، ولكنّه ينفيهما عن الرسول صلى الله عليه وسلم بينما هو لا يؤمن بهما أصلاً، لذلك يقتضي منطق العصر أن نبرهن له أوّلاً بأنّ **الوحي** حقيقة لا تعارض العقل ولا تناقض العلم، وأنّ ليس هناك معرفة يقينية إلاّ في الدين، أمّا في غير الدين فإنّ الشيء الوحيد المؤكد هو النسبية، وأنّ العلم اليوم أصبح يستنير بحقائق الدين ويعلن عجزه عن تجاوز الوصف إلى التفسير، سواء في تعامله مع الإنسان أو الكون والطبيعة.

إنّ التكوين في المجتمعات الإسلامية يجب أن تتكفل به المناهج الدينية، إذ هي التي تربي الوعي الخلقي والديني وترشد السلوك الاجتماعي وتوجه التفكير

الملتزم، وترسخ العقيدة وتهذب الغرائز، وتبني الشخصية المتكاملة التي يستطيع مجتمعنا المعاصر أن يواجه بها تحديات القرن الواحد والعشرين.

فعلى علمائنا ومفكرينا أن يعمقوا نظرتهم إلى واقع مجتمعنا ويحاربوا من يسعون إلى تجميد العقول وتهميش البحث. وأن يجتهدوا في البحث عن الوسائل والأساليب التي تمكّن مجتمعنا من إيجاد قاعدة علمية متينة نواجه بها زحف العولمة، ونكوّن جيلاً واعياً قادراً على مقاومة الجمود والانحرافات ومظاهر اليأس المتفشية في المجتمع ليتمكّن من الإسهام في تغيير واقع أمته في الاتجاه الذي يحقق لها العزة والكرامة.

إنّ الجيل الذي ندعو إلى إعداده هو الجيل الذي يبني ذاته بذاته ويستلهم في ذلك أصول حضارته ولا يدير ظهره لعصره أو يتجاهل حقائق الحياة من حوله، بل يتفتح على التجارب الإنسانية المفيدة التي تستجيب لحاجته المتجددة من غير أن يفقد ذاته أو يخونه وعيه فيما يأخذ أو يترك[14]. وهذا هو الجيل الذي كان يناضل من أجله علماء الإسلام في المشرق والمغرب، ونكتفي بالإشارة هنا إلى الأفكار التجديدية التي كان الشيخ عبد الحميد بن باديس في الجزائر يركّز عليها نشاطه الإصلاحي وجهوده التربوية. فلقد كان هدفه الأوّل هو بعث روح التجديد في الفكر الإسلامي، وتحريره من الجمود، بحيث يصبح تفكير المسلمين واقعياً معاصراً خالصاً من كلّ الشوائب، مستوعباً الأصول الدينية الصحيحة،

[14] – إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، د. فضيل عبد القادر، ص 171.

وحقائق الحياة المعاصرة، وقائماً على المزاوجة بين ما يقتضيه العقل، وما يرتضيه الشعور الديني (الإيمان)، وفي هذا المجال ظلّ ابن باديس يصحّح المفاهيم الدينية الخاطئة، وينقد التأويلات التي لم تكن على أساس صحيح، وليس لها سند علمي ولا تاريخي ولا منطقي، كما كان يهيب بالعلماء والمفكرين إلى استخدام العقل والمنطق والتاريخ حتى تصبح مواقفهم وآراؤهم جديرة بالاهتمام ومستمدة من الأصول الصحيحة، ومتوافقة مع العقل. وكان هدفه من كل ذلك أن يسترجع الدين قوته وصفاءه ونفوذه على النفوس[15].

...إنّ نظرة الإمام ابن باديس إلى الإسلام نظرة دقيقة وواقعية قلّ أن نجدها عند الكثير من العلماء، ذلك أنّ الحقيقة الإسلامية بالنسبة إليه لا تنحصر فقط في العقائد والعبادات التي يلتزم بها الفرد التزاماً شخصياً، ولا في المعلومات والتعاليم التي تُلقّـــن للناس ويوجّه الاهتمام فيها إلى تربية وجداهم، وتقويم سلوكهم، وهمل فيها الجوانب المتعلقة بتنظيم حياة الناس، وتدبير شؤوهم، وتحديد المسؤوليات وأساليب التحرّك داخل المجتمع ومعه، والعلاقات التي تربط الفرد بغيره وبالمحيط الذي يعيش فيه. فالإسلام من هذا المنظور ليس اهتماماً بالماضي والتراث وإغفالاً للحاضر والمستقبل، وليس انغلاقاً على الذات وانقطاعاً عن الدنيا والمتع والمشتهيات المباحة، فهو عند ابن باديس كما يقول : **دين البشرية التي لا تسعد إلاّ به لأنّه يخدم الإنسانية في جميع أجناسها، ويعترف**

[15]– إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، د. فضيل عبد القادر، ص 67.

بالأديان ويحترمها، ويمقت التعصّب ويدعو إلى الأخوّة والتعاون والكرامة الإنسانية لجميع الأجناس، ويأمر بالعدل العام[16].

تنطلق هذه النظرة من حقيقة تاريخية ودينية هي أنّ الإسلام ليس ديناً خاصاً بالعرب أو سكان قارة من القارات أو بجنسية من الجنسيات، إنّما هو دين الإنسانية جمعاء، ﴿ **وما أرسلناك إلاّ كافة للناس بشيراً ونذيراً**﴾[17]، فهو من هذه الناحية يوازي العالمية لا بوصفه ديناً يجب أن يأخذ به جميع الناس ولكن بوصفه ديناً يسع جميع الأجناس والمعتقدات[18].

إنّ التجديد الذي يدعو إليه المفكرون والعلماء لا يمكنه أن يتمّ خارج العقل أو يأتي مجانباً للمصلحة الجماعية أو منافياً للمنفعة الإنسانية، فالجانب النفعي يتمثل فيما جاء به الدين من أخلاق وعدالة وقيم، ولكن العقل هو الذي يستدعيها ويحدّد دلالتها ونوع النفع المستفاد منها، هو الذي يطوّرها ويحيّن النظرة إليها إذا اقتضى الأمر.

الخلاصة.

لا يستطيع الخطاب الديني أن يحدث الأثر المنشود في المجال الفكري والوجداني والأخلاقي والحضاري إلاّ إذا كان الدعاة والممارسون للعمل التربوي

[16]- إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، د. فضيل عبد القادر، ص 67

[17]- سورة سبأ، الآية 28.

[18]- محمد الميلي : ابن باديس وعروبة الجزائر، ص 84.

والقائمون على نشر الفكر الإسلامي عالمين بفن القول وأساس التبليغ وأصول الحوار، وكانوا يملكون القدرة العلمية والمنهجية التي تتيح لهم فهم الآخرين وإفهامهم وتقديم البراهين التي تقنع غير المقتنع، وتعلّم من ليس له علم، وتدفع المُعارض إلى تغيير موقفه وتصحيح فهمه، وتجديد نظرته إلى الدين وإعطائه الدلالة الإيجابية التي تفرق بين ما هو من الإسلام بحسنه وبرهانه، وما ليس منه بقبحه وبطلانه.

إنّ الدعاة الذين يحتاج إليهم مجتمعنا اليوم هم الذين يسيرون في تحليلاتهم وفي خطاباتهم وفق مقياس المنفعة والمضرّة، والصواب والخطأ، إذ يمكن أن نجعل هذا المقياس منطلقاً لتحليل بعض المسائل الدينية في علاقتها بالمواقف الحياتية، تلك المسائل التي تطرح نفسها بهدف اتخاذ موقف منها.

فنقول : إنّ ما ينفع في حياتهم هو الحق والحق جزء من الدين، وما يضرّ الناس ويؤذيهم، أو يقلل من شأنهم فهو الباطل والباطل مناف للدين.

وكذلك مقياس الخطأ والصواب، فيمكن أن نربطه بالمنفعة أو المصلحة العامة، فالذي يضر الإنسان هو الجهل والإلحاد والكفر وهي صفات منافية للدين، لأنّ الذي يُوصف بهذه الأوصاف السلبية يفتقر إلى العلاقات الحميمية التي تربطه بخالقه،وإلى علاقة التعاون التي تربطه بالمجتمع كما يفتقر إلى التفكير الصحيح الذي ينتج العلم المفيد، هذا العلم الذي يرفع شأنه ويبصره على الطريق

الذي يسلكه ويمده بالمعرفة التي تنهض بفكره، وترسم له النهج الذي يجعله يستجيب لدواعي الحياة المتفتحة المزدهرة العاقلة مصداقاً لقوله تعالى :﴿ **يا أيّها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم**﴾[19].

[19] – سورة الأنفال، الآية 24